

دموع باريس

رواية

بقلم : دكتور حسين مؤنس



بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب المصرية
إدارة الشئون الفنية

مؤنس ، حسين .

دموع باريس : رواية / بقلم حسين مؤنس . - ط ١ . -

القاهرة : دارالرشاد للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٧

٦٤ ص : ٢٠٠١ سم .

تدمك . - ١٠٤ - ٢٦٤ - ٩٧٧

١ - القصص العربية

أ - العنوان ٨١٢

الناشر :	دار الرشاد
العنوان :	١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفاكس :	٢٣٩٢٤٦٠٥
بريد إلكترونى :	Dar_al_rashad @ hotmil . com
رقم الإيداع :	٢٠٠٧ / ١٦٥٢٧
جمع :	النصر للجمع التصويرى
تليفون :	٧٨٦٣١٩٩
طبع :	عربية للطباعة والنشر
تليفون :	٢٣٢٥١٠٤٣ - ٢٣٢٥٦٠٩٨
الطبعة الأولى :	١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
مراجعة :	عادل أبو المعاطى
الغلاف للفنان :	عبادة الزهيرى

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

دموع باريس

رأيتها مرارًا قبل أن أعرفها . ولكنها كانت بالنسبة لى شيئًا بعيد المنال جدًا . كنت أراها كما أنظر إلى نجحات السينما أو لوحات رسمها فنانون كبار : للرؤية فقط . . الرؤية من بعيد .

كانت جميلة جدًا وإن كانت صغيرة الحجم . كانت كأنها دُمية جميلة صنعها صانع بمهارة وحب ، وكانت أنيقة : لا تراها قط مرتين في ثوب واحد ، كانت لديها سيارة حمراء من ماركة اختفت اليوم : انسالدو ، ولكنها في أيامنا كانت رمزًا للشراء ووفرة المال ، وأيامها كان الطلاب في الجامعة لا يملكون سيارات . كانت الدنيا أفقر بكثير مما هي اليوم .

وكانت نفسى ترتاح لرؤيتها أحيانًا . كنت أجلس على أحد مقاهى شارع ميشيل بولفارسان ميشيل أو البول ميش كما يسميه الطلاب ، لكى أراها - وهى تختفى بسيارتها - مجرد رؤية ، وكان فى هذا كفاية .

وكنا زميلين فى درس واحد ، ولم يكن فى الدرس سِوانا . كنا فى المدرسة العليا للدراسات التاريخية فى جامعة باريس ، وكان الدرس خاصًا بصراع البيزنطيين مع البلغار . أما أنا فكنت أدرس الموضوع

لأنه يتصل بتاريخ الإسلام ، فقد كان البلغار حتى القرن التاسع مسلمين ، وكان يهمنى أن أعرف . . كيف تحولوا عن الإسلام ؟ أما هي فما فهمت قط . . لماذا تدرس هذه المادة الجافة ؟ قال لي أستاذنا واسمه الدكتور بيكرمان : إنها بلغارية الأصل وإن كانت اليوم كندية . أهلها هاجروا إلى كندا من زمن طويل . هناك اغتنوا وتمولوا ، وقد أتت إلى باريس لأن عمها وهو ولي أمرها طلب منها أن تدرس في باريس وتخصص في تاريخ بلغاريا . ودولة الروم .

وأضاف الدكتور بيكرمان : ولا أظن أنها ستدرس من ذلك شيئاً . إنها مسجلة في مادتي هذه من ثلاث سنوات ، ولا أذكر أنها حضرت ثلاثة دروس ، إنها تحب اللهو والاستمتاع ، وهي تنفق الألف ولم لا ؟ هناك ناس يُولدون سعداء : مال وجمال وشباب . وكان اسمها استفانيا : ولكنها كانت مشهورة في السوربون كله باسم استيفى أو استيفى الجميلة ، استيفى لابل ، أو استيفى المجنونة أو استيفى لا فول . والجنون مكروه إلا في الشابات الجميلات .

وكان الدكتور بيكرمان روسي الأصل ، وربما كان أيضًا بلغاريًا وكان يعمل في هذا المعهد في باريس في انتظار فرصة الهجرة إلى كندا ليعمل أستاذًا في إحدى جامعاتها ، فقد كان عم استيفى قد تبرع بهال عريض لجامعة البرتا بداخل كندا ، وكان يرشح بيكرمان لكرسي الدراسات البيزنطية .

لهذا كان بيكرمان يحب استيفى ويعطف عليها ويتحمل من متاعبها
الشيء الكثير ، وكانت لا تحضر الدرس قَطَّ وكان هذا يؤلم بيكرمان .
كنتُ دائماً وحدى معه فى الدرس وكان يقول لى : دعها . ستعقل يوماً
من الأيام . نكرمها لخاطر عمها . ساعدها إذا استطعتَ أعطها
مذكراتك .

- ولكن يا أستاذ ، إنها لا تكاد تنظر إلىَّ .

- ستنظر إليك يوماً من الأيام . أنت لا تعرف استيفى .



واقترَب الامتحان ، وأعددتُ نفسى له إعداداً طيباً . وذهبتُ يوماً
إلى الجامعة لأدفع الرسوم . وجدتُها هناك . كانت فى انتظارى . الأستاذ
بيكرمان قال لها : إننى سأعمل لها الإجراءات كلها . تعرَّف أحدنا إلى
الآخر . أعجبتنى منها بساطتها وراقنى مَرَحُها . بعد أن دفعنا الرسوم
وأتممنا كل شيء قالت لى :

- أين نذهب ؟

- كما تشائين .

- نأخذ الشاي فى محل بونس ؟

- كما تشائين .

وبونس كانت قاعة جميلة جدًا للشاي . كانت تطل على حديقة اللوكسمبورج . كانت مفروشة بالبُسْط وكان الشاي يُقدَّم فيها في أواني كريستوفل وسيفر . في نفسى شيء يحب الفخامة والترف ، إنه حب الحضارة ، أحيانًا كنت أستغنى عن الغداء لكى أوفر شيئًا من المال . آخذ به الشاي عند بونس .

أعجبتنى فيها أناقتها البالغة ورشاققتها التى تملأ النفس مسرة . خلعتُ معطف المطر الأزرق الجميل وتناوله منها الخادم ، قالت وهى تضحك :

- أنت ضيفى .

- لا يليق ..

- لا .. يليق وأنت ضيفى !

- كما تشائين . أرجو ألا يكون هناك فرق أو تكليف بيننا ..

- لقد حدَّثنى عنك بىكرمان حديثًا طويلًا .. ماذا قال لك عنى ..؟

- لم يقل شيئًا كثيرًا ، ولستُ فى حاجة إلى أن يقول لى أحد عنكِ شيئًا . يُجَيِّل إلى أننى أعرفكِ بما فيه الكفاية .

- غريب .. هذه أول مرة نلتقى ..
- لا .. لقد التقينا مرارًا . أصارحك الحق كنت دائمًا أحب أن أراك من بعيد .. لم أكن أتوقع أن أجلس إليك مرة .. كنت بالنسبة لى شيئًا مثل نجوم السينما .. استر وليامز أو أفا جاردنر .. مثلاً ..
- وضحكْت ، وجرى الحديث بيننا هَوْنًا ، ثم دخلنا فى موضوع الامتحان فقالت :
- قال لى الأستاذ بيكرمان إنك ستساعدنى .
- كل ما تريدن ..
- إن بيكرمان هو وئى أمرى هنا ، وهو الأستاذ والمراقب والمصحح .
- فلا بأس علينا من أية ناحية .. أريد أن أقول : لا تخف .
- وممَّ أخاف ؟ قولى : ما المطلوب منى ؟
- اسمع يا سيدى .. على فكرة لماذا لا تنادينى باستيفى .. المطلوب منك أن تجلس فى الامتحان على نحو أستطيع معه أن أنقل منك ..
- سأجلس وراءك .. بينى وبينك .. أنا لم أقرأ كلمة ..
- مراقبنا فى الامتحان سيكون بيكرمان ؟
- وهو الذى سيتولى التصحيح .
- إذن فسأفعل كل ما تريدن .. ومبروك مقدمًا ..



- صدّقنى إننى متعبة جداً ..

وبعد لحظة صمت :

- حياتى لا تعجبنى .. إننى غير سعيدة .. إننى متعبة .. وَزَن الحياة على
أكتافى ثقيل ..

- لم أكن أنصوّر ذلك .. كنت أنصورك أسعد مخلوقة فى الدنيا ..

- وما أنت ذا ترى حالى .

- لا أدرى إن كنت أستطيع دعوتك للعشاء ..

- إننى مرتبطة .

- وهذه الارتباطات هى سبب تعبك .. دَعَلَ منها وتعالى معى .. إننى
إنسان بسيط .. سنأكل فى تافرنا صغيرة فى شارع ليل ..

- سأذهب معك .. لا أدرى إننى مرتاحة لك .. أنت رجل هادئ
مطمئن .. تتكلم بهدوء وثقة .. أريد أن آخذ منك شيئاً من ذلك
كله .

- كُونى تلميذة مُطِيعَةً ربيّا تشعرينَ بالسعادة .

- وتعيشينَا معاً ، ركبت للمرة الأولى سيارة خاصة فى باريس . جلست
مع استيفى فى الإنسال دو . ضحكنا طويلاً وتكلمنا كثيراً ، أوصلتُها

إلى دارها في سيارتها ، إنها تسكن في شارع كوندية نى ياسى أجيل
أحياء باريس .

قالت وأنا أودّعها :

- تصدق ؟ هذه أسعد ليلة قضيتها منذ شهر ..

* * *

وجاء يوم الامتحان .. كانت هناك قبلى وكانت تتحدث مع الأستاذ
بيكرمان . الامتحانات هناك شيء عادى لا يشعر به أحد . ليست لها
هذه الرهبة الصبيانية التى نحيطها نحن بها هنا . جلست مكانى
وجلست هى ورائى لتنقل منى كما اتفقنا ، وكتب الأستاذ السؤال على
السطورة ، وأشعل سيجارة ومضى يقرأ كتابًا . قرأت السؤال ونظرتُ
إليها ، كانت تنظر إلىَّ بعين قطة تحب الدعابة يبدو أن اللعبة أعجبتها .

ومضيتُ أكتب بخط كبير . وتركت الطريق بينها وبين ما أكتبه
خاليًا لتقرأ وتفعل ما تريد ، ثم أخذتنى مطالب الإجابة فنسيت نفسى
ونسيتها ومضيتُ أكتب وأكتب وأنا أحسب أنها تنقل ما شاء لها
النقل ..

قبل نهاية الوقت المحدد بدقائق نهضتُ ووضعتُ الورقة على مكتب
الأستاذ ومضت مسرعة . بعد لحظات أتانى وأرانى ورقة بيضاء ليس

عليها إلا اسمها . مع ورقة الامتحان كانت هناك قصاصة تقول فيها :
معذرة لم تسمح نفسي بأن أخون نفسي أو أستاذي أو صديقي ثم كتبت
عنوانها .

هَزَّ الأستاذ رأسه ، وقال :

- امضي أنت في عملك يا بني . مسكينة هذه البُنيَّة ولكنها على الأقل
تُحترم نفسها .

وراجعت إجابتي وسلمت الورقة للأستاذ :

- تعطيني هذه القصاصة ؟ أظن أنها لي .

- إنها لي ولك .. خذها ..

وعندما كنت بالباب سألت :

- هل ستذهب إليها ؟

- لا أدري إن كان من حقي أن أطرق بابها ..

فسكت لحظات ثم قال :

- أنا أيضًا لا أدري ، ولكنني أحس أنها في حاجة إلى عَوْن . هذه الورقة

استفانة بي وبك . أنا شخصيًا لا أستطيع الذهاب . أنت تفهم عني .

سيحسبون أنني أسعى للوظيفة التي وعدني بها عمها . ولكنك أنت

تستطيع ..

- ترى ؟ هل أذهب إليها ؟

- أعتقد ذلك .



عندما دخلتُ ردهة البيت استوقفتني الفخامة . كل ما هناك كان رخامًا ونحاسًا وزجاجًا ملونًا . البوابة سيدة محترمة بدينة لا تفارق السيجارة فمها . عندما رأتني قالت :

- أنا أعرفك .. أنت صديق مدموازيل استيفى .. مسكينة هذه الأمريكية ! كل الأمريكيات اللاتي يأتين باريس مسكينات ، عندهن المال والشباب أما العقل فلا يعرفه . باريس تحطمهن جميعًا .. يُخَيَّلُ إلى أنهن يأتين إلى هنا ليتحطمن .

- لماذا تقولين هذا الكلام ؟

- لأنني حزينة على المدموازيل .. أنت من ساعة تحمل حزن الدنيا كلها .. كانت تبكى ..

- هي هنا إذن ..

- أجل ولكن ربما كانت نائمة أو ربما كانت في الفيراندا البعيدة . عليك أن تدق الجرس كثيرًا ..

ودققت الجرس حتى تعبت يدي .

كان السلم رخامياً فخماً ، وكان هناك شباك كبير مُزِينٌ بالزجاج الملون ، جلست على السلم ومضت نحو ساعة .

ثم سمعت خطوات داخل الشقة . عُدْتُ أضغط الجرس . فتحت الباب ، رأيتها وعلى وجهها حزن الدنيا كما قالت البوابة . قالت كأنها لم تستغرب مجيئي :

- أدخل .. كنت أنتظرك ..

بهرتني فخامة الشقة . كانت واسعة جميلة كل ما فيها غالى الثمن . ظللتُ صامتاً أتأمل فعادت تقول :

- لماذا لا تدخل .. لماذا لا ترد عليّ ؟

- هل قلت شيئاً ؟

- قلت إننى كنت أنتظرك ..

- أحسستُ بذلك ..

- ولماذا تأخرت ؟

- لى أكثر من ساعة هنا ..

- كنت نائمة ..

وجلسْتُ وأجهشتُ باكية . تركتُها تبكي لأن البكاء راحة ورحمة .
كانت بنفس ملابس الصباح ولكنها خلعت الحذاء فبدت كأنها طفلة .
نظرت إلى طويلاً ثم قالت :

- لا تفتح إن ضرب أحدُ الباب ..

- يُستحسن أن تقولي للبوابة .

رفعت سماعة تليفون خاص بالبوابة ، وقالت :

- مدام فولار .. إنني لست هنا .. أيا كان الطارق فلست هنا ..

- نعم هو هنا ..

وفهمت أن العبارة الأخيرة تعينني .

ثم ذهبت وأحكمت رتاج الباب وأطفأت النور الكبير . لم يبق إلا
الضوء الخافت الهادئ المترامي عبر نافذة واسعة ملوَّنة .

قلت :

- ما هذا الذي فعلتيه ؟

- وهل كان هناك حل آخر ؟

- ألم يكن هناك اتفاق ؟

- لو إنسان غيرك لما ترددت في التقل منه .. ولكن أنت .. لا أدري ..
لم أستطع أن أفقد احترامك .

- لم أفكر في ذلك .

- هل كنتَ ترضى أن أكون غشاشة ؟

- لا .. عندك حق .

- لا أدري لماذا أطمئن إليك .. من يوم اجتمعنا في قاعة بونس وأنا
مشغولة بك .. لا .. لا أقصد ذلك .. أقصد أنني كنت أحس أنني
أريد أن أراك ..

- وها آنذا بين يديك ..

قالت :

- تعال نجلس في القاعة الداخلية .. أريد أن أقول لك كلامًا كثيرًا ..
إنني متعبة يا .. على فكرة بماذا أناديك .. هل تتصور أنني أجهل
اسمك ..

- سمّني كما شئت ..

- ما اسمك ؟

- فلان ..

- لا يعجبني ..

- قلت : سَمْنِي كما تشائين ..

- أَسْمِيكَ تيو .. إنه اسم جبل يطل على ضيعتنا في البرتا .. الجبل اسمه تيو جران . وأنا أحبه . هل يعجبك الاسم ؟

- لا يعجبني .. ولكن الاسم لا يهم .. ليَكُنْ ما تشائين .

- تيو .. إنني ضائعة .. أريد أن أجد نفسي .. أريد أن يجدني أحد ويدلني على نفسي .. لا تسخر مني .. إنني غير سعيدة .. عندي كل شيء ولكنني غير سعيدة .. إنني ضعيفة جداً ..

- أنت لستِ ضعيفة .. أنت طيبة القلب ..

- أريد رجلاً إلى جانبي .. لقد مات أبي وأمي في حادث سيارة فتولى أمري وأمر أختي عمي .. إنه رجل كريم جداً .. أسرف في تدليلنا وهذه هي النتيجة .. إن أختي أحسن مني ولكنني أنا كارثة ! كل ما أفعله هو أن أضيع مالي وعمرى .. أربع سنوات في باريس لم أفعل شيئاً .. إنني ضائعة .. خائفة أن أضيع بلا عودة ..

- لن تضيعي يا استيفي .. الدنيا بخير ..

ثم أطالت النظر إلى الفيراندا الواسعة ، وقالت :

- لماذا أشعر بالاطمئنان إليك ؟

- ربما لأننى أذكركِ بعمك ..

- ألم أقل لك إن عمى هو الذى ضيَّعنى ..

- لم تضيعى أبدًا يا استيفى ..

- إننى متعبة يا تيو .. لا أريد أن تركنى .. أريد أن أنام الآن وأصحو

لأجذك هنا .. لا بد أن شكلى خفيف .. أريد أن أنام لكى ترانى فى

صورة أحسن .. هل تنتظر حتى أنام ؟

- نامى كما تشائين .. أنا أيضًا متعب .. سأستريح هنا فى هذا الصالون

الجميل .

- حسنًا .. هنا فى هذه الطُّرقة نجد المطبخ على يمينك ، الثلاثة

والدواليب ملأى بالطعام .. عندك أيضًا حمام واسع جميل . إنه حمام

عمى .. دواليبه ملأى بالملابس .. خذ ما تريد .. لا تقلق بسببى ..

عندى حمام آخر فى غرفتى ..

ثم ثأبت وقالت :

- إلى قريب يا تيو ..

ومضت ودخلت جناحها وأغلقت الباب .



وجدتُ نفسى وحدى فى ذلك البيت الفرنسى الجميل . كل ما كان
حولى ينطق بأنه فرنسى . ذوق بديع ترى فيه خط الذوق الفرنسى من
أيام لويس الرابع عشر .. حقاً إن الحضارة شىء عظيم ..

وسرتُ إلى المطبخ . كان بالفعل حافلاً أكلت ما تيسّر ثم دخلت
حماماً كأنه حمام سلطان تركى . غسلت نفسى وفتحت الدواليب
ولكننى لم أمسّ شيئاً فيها . كانت حافلة بالملابس : دولاب كامل كله
بذلات من كل لون ، ودولاب للملابس البيت داخلية وخارجية . حقاً
إن الفنّ جميل !

وأردتُ أن أمشط شعرى . ذكرت وصية مدام إليس البرتى راندان
التي أسكن عندها من زمن طويل : كن دائماً فى أحسن هيئة .. عُذت
إلى الحمام واخترت قميصاً جميلاً جداً وأخذت بذلة أيضاً . غريب أن
الملابس كانت مناسبة لى . خلعتُ ملابسى ودخلتُ فى ملابس أهل
المال ..

وعُذتُ إلى القاعة الجميلة أردت أن أنام ، قبل أن أستلقى على
الأريكة نظرت إلى دولاب فى غاية الأناقة تقوم عليه المرأة .. هالنى ما
رأيت .. قدر هائل من الجواهر والمصوغات : أساور وعقود وأقراط

وبتاتيفات .. شىء لم أر مثله إلا فى فترينات الصاغة .. وكانت هناك نقود كثيرة .. رَبطات من الفرنكات والدولارات الأمريكية والكندية والجنيهات الإنجليزية .. ونقود ذهبية كثيرة جداً .. لم المس من ذلك كله شيئاً ولكننى وقفت واجماً .. وانتبانى خوف .. فإن مثل هذا المال الكثير له رهبة ومسئولية .. ووجوده مكشوفاً مبعثراً على هذه الهيئة يبعث على الشك . وهذه البنت أنا لا أعرفها إلا من ساعات .. ومن الممكن جداً أن تجرى بها الظنون إلى ما يسوؤنى .

تركْتُ هذا الكنز على حاله . ومضيت فاستوثقت من رتاج الباب وقدَّرْتُ ألا أفتح الباب لأحد حتى تصحو البنت وترى أشياءها ، واستلقيت على أريكة مواجهة للدولاب ، ومضيت أشرب الشاي على مهل فى انتظار أن تصحو من نومها .

وكانها أرادت أن تزيد قلقى وغاوى فنامت طويلاً ولم تَصُحْ إلا بعد أن هبط الليل . قامت متمتشة مستبشرة .

كان أول ما فعلته عندما خرجت من جناحها أن نادتنى ، فلما رددت قالت : الحمد لله .. الآن أحس أن إلى جانبى رجلاً . كَمْ أنا سعيدة لوجودك .

كانت في أجمل صورها .. نظرتُ إليها طويلاً فأدركت أنها أفاقت
من النوم من زمن ، ولكنها أنفقت وقتاً طويلاً في التجمُّل . كان شعرها
الحريرى مُرسلاً على جوانب وجهها كأنه خيوط من ذهب . كانت
رُزقة عينيها صافية كأصفى ما تكون السماء في اليوم الجميل . كان
وجهها الوردى أنيقاً يتحدث عن ذوق باريس وفن باريس في تجميل
بنات حواء .. وكانت تضحك كأنها طفلة .

وجلسْتُ على البساط إلى جوارى وصَبَّتُ لى الشاى ، وعندما آنستُ
منها هذه المودة كلها قلت لها :

- قُومى وانظرى فوق هذا الكونسول ..

- ماذا هناك ..؟

- انظرى أولاً ..

وقامت ونظرت وصرخت قائلة :

- يا إلهى .. مصوغاتى ، جواهرى .. نقودى ..

ثم التفتت نحوى وفى عينيها فزع وريبة واتهام !

* * *

وظلت تنظر إلىَّ والخوف فى عينيها ، ثم قالت :

- ماذا أتى بذلك كله إلى هنا ..؟

- لا أدري .. بعد أن خرجتُ من الحمام حانت منى نظرة فوجدت هذا كله كما ترين ، ما مسستُ شيئاً منه بأصبع .

- ولكن .. كيف أتى إلى هنا .. لا بد أن لصوصاً دخلوا هذا البيت ..

- ربما .. ولكن انظري أولاً .. هل ضاع منه شيء ..؟

- لا أدري .. ذلك كله كان في صندوق حديدي أحفظ به في حجرة نومي .. إنه خزانة صغيرة ...

وَتَلَفْتُ حَوْلِي فوجدتُ الصندوق الحديدي على كرسى إلى جانب الكونسول فقلت :

- إليس .. هذا هو الصندوق ..؟

- نعم ..

وأمسكتُ به تنظر فيه ، ثم استخرجتُ منه ورقة فهمتُ بعد ذلك أنها قائمة بمحتوياته ، فقلت :

- تعالِ نراجع القائمة على الموجود . هكذا نعرف إن كان هناك شيء مسروق ..

ومضينا نراجع وانتهينا إلى أن كل شيء هنا عدا قرطاً من الماس وعقدًا من اللؤلؤ وأسورة ذهبية ذات معلقات ..

قالت :

- هذه سُرقَت ..

قلت :

- لا .. هذه لم تُسرق .. انظري في حمامك أو إلى جانب دولا ب ثيابك
أو على المنضدة الصغيرة .. إلى جانب سريرك .

ودخلتُ وغابت لحظات ، وعادت تقول :

- وجدتُ العقد والأسورة .. بَقِيَ القُرطان ..

وابتسمتُ وقلت :

- إنهما في أذنك ..

وتحسستُ أذنيها وخلعت القُرطين وضحكت ، وقالت :

- عندك حق .. ولكن .. مَنْ أتى بالصندوق وفتحهُ ووضعهُ هنا ؟

- لا أدري

ومضت تفكر ، وجلست على البساط وعادت تشرب الشاي ، ثم
عاد إليها الفزع وقالت :

- أنا .. أنا التي فعلت ذلك .. يا إلهي ، يا لي من غيبة .. كدتُ أضيع
مالي كله ! ألم أقل لك إنني لا أصلح لشيء .

- قُولِي لِي الْآنَ ، مَا الَّذِي حَدَثَ ..

- الْآنَ أَذْكَرُ مَا حَدَثَ ! مِنْ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ أَوْ خَمْسَةٍ .. كَانَ ذَلِكَ مَسَاءَ
الثَّلَاثَاءِ . كَانَ عِيدَ مِيلَادٍ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِي وَكُنْتُ قَدْ نَسِيتُ
الْمَوْعِدَ . فَانْتَظَرُونِي ثُمَّ اسْتَدْعَوْنِي بِالتَّلِفُونِ ، فَأَسْرَعْتُ أَرْتَدِي
مَلَابِسِي ، وَبِسَبَبِ تَعْجَلِي أَخَذْتُ الصَّنَدُوقَ وَنَثَرْتُ مَا فِيهِ كَمَا تَرَى
لَكِي اخْتَارَ مَا أُرِيدُ . ثُمَّ تَرَكْتُ كُلَّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْفَوْضَى وَجَرِيتُ !
ثُمَّ مَضَيْتُ تَضْحَكُ وَقَالَتْ : نَصُورُ أَنْتِ أُلْحِجِّي عَلَى الْبَوَابَةِ مِنْ أَرْبَعَةِ
أَيَّامٍ لَكِي تَصْعَدُ لَتَنْظِيفِ الشُّقَّةِ ، وَالْمِفْتَاحَ عِنْدَهَا ! لَوْ أَنَّهَا دَخَلَتْ مَرَّةً
لَاكْتَشَفْتَ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَلَمَا اسْتَطَعْتَ أَنْ أَهْودَ عَلَيْهَا بِشَيْءٍ .

وَسَبَحْتُ مَعَ أَفْكَارِهَا وَعَلَّثْتُ وَجْهَهَا كَابَةً ..

قُلْتُ :

- الْآنَ قَوْمِي فَضَعُوا أَشْيَاءَكَ مَكَانَهَا ، وَعِدَّتِي نَقُودَكَ ، خَاصَّةً تِلْكَ
الْقِطْعَةُ الذَّهَبِيَّةُ الْكَثِيرَةُ ..

- الْآنَ أَقُومُ .. دَعْنِي أَشْرَبُ الشَّايَ ..

- أَرْجُوكِ .. قَوْمِي الْآنَ ، وَسَأَذْهَبُ أَنَا إِلَى الْمَطْبَخِ لَعْمَلِ شَايٍ جَدِيدٍ ..

- قَالَتْ : أَرْجُوكِ أَنْ تَظَلِّي مَكَانَكَ . سَأَعْبُدُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِلَى مَكَانِهَا
وَأَهْودُ لِأَعِدَ لَنَا طَعَامًا .. أُرِيدُ أَنْ تَتَعَشَى مَعِيَ اللَّيْلَةَ هُنَا ..

وأخذت الصندوق وأخذت تضع أشياءها ونقودها .

ودقَّ جرس التليفون ، فنهضت لأردّ . قالت :

- أرجوك .. لا أريد تليفونات من أحد . انزع الفيش أرجوك . لا أحد اليوم إلا أنت وأنا .. إذا طرق الباب فلا تفتح .

وغابت بعض الوقت في غرفتها . وعادت وهى فى كامل أناقتها ، ومدّت يدها إلى بشىء تناولته فإذا به عملة ذهبية قيمتها خمسة جنيهات .. قالت :

- هذه لك ..

- اعفنى من تلك الهدايا يا عزيزتى ستيفى .. صدّقينى إننى لا أريد تكفينى صداقتك ..

قالت :

- أما أنا فأريد منك أكثر من الصداقة .. هذه الهدية لا شىء . إننى أتمنى أن تأخذنى وكل ما عندى . طول عمرى أشعر أننى فى حاجة إلى رجل مثلك . أريد عمادًا أسند إليه ظهري . إننى ضائعة كما ترى . أهلى ضيّعونى وأصدقائى نهبونى وأريد أن أنجو بشىء ، أريد أن أعيش فى هدوء .. أريد أن تكون لى أسرة : زوج وأولاد وبيت ..

إن مالى كثير كما ترى .. عندنا فى البرتا، ثروة ضخمة وليس هناك
إلا عمى وأنا وأختى ..

- تقصدين ؟

- أجل .. أقصد بالضبط ما فى ذهنك .. أنا أعرف أن العادة لم تُجَرِّبْ
بذلك ، ولكن هناك لحظات لا بد أن يتصرف الإنسان فيها تصرفاً
غير عادى . عندما تجد المرأة الرجل الذى تبحث عنه ينبغى فى رأى
أن تقول له إنها تحب أن تكون زوجته . وقد رأيتُ فى عينيك أننى
أعجبك .. لهذا لا أتردد .. إننى أريد أن أكون زوجتك . لا أريد أن
تخرج من حياتى ولا أريد أن أخرج من حياتك ..

ونظرتُ إلى قطعة الذهب فى يدى ، ثم قلت :

- هل تُصدِّقينى يا ستيفى ؟ إن هذه أول مرة فى حياتى أجد فى يدى
قطعة ذهب . إننى رجل بسيط جداً يا ستيفى . إننى طالب . طالب
مصرى لا يملك إلا الرغبة فى النجاح والأمل . . . والذى تعرضينه
على كثير جداً ، إنه أكثر مما أحتمل .. لم أفكر قط فى أن أكون
صاحب مال ، ولا خطر ببالى مرة أن تكون لى زوجة فى جمالك
أو حسبك ..

فقاطعتنى قائلة :

- هناك سؤال واحد يهمنى هنا : هل أعجبك وترضى بى زوجة ..

- قطعاً .. ولكن ..

- كل «اللاكنات» بعد ذلك لا شىء . المهم هو أننى أعجبك وأن تحس

نفس إحساسى : تريد أن تعيش معى عمرك كله .. الباقى

تفاصيل .. كل شىء نستطيع تذليله ..

ثم اقتربت منى ووضعت كفيها على كتفى ، وقالت :

- أتدرى ماذا كان شعورى قبلك ؟ شعور خوف دائم .. كنت أسير

فى الحياة كالسائر فى المطر دون مظلة .. والآن فجأة توقف المطر

وسطعت الشمس وفى يدى مظلة ..

وضحكت .. وجرت نحو المطبخ ، وهى تقول :

- إننى طالبة غير موفقة ، ولكننى قطعاً زوجة صالحة .. سترى الآن

عيئة من طعامى الذى ستأكله مابقى لك من عمر .



وبقيت وحدى فى تلك القاعة الجميلة وفى يدى القطعة الذهبية

الكبيرة ، وضعتها فى جيبى وجلست ، وجعلت أقول :

- مشيبتك يا رب ! ذلك تحقيق كل آمالى : مال وجمال وهدوء بال
ومستقبل كأنه رَوْضٌ .. لتكنْ مشيبتك . من الكفر أن أرفض هذه
النعمة كلها .

ثم سبَحْتُ بى أفكارى وردَّتْنى الأفكار إلى واقع حياتى وقلت
لنفسى : ولكن . ماذا أعمل وأنا طالب وعضو بعثة وللدولة عندى
حقوق ! ماذا أعمل وفى رقبتي أسرة من أم وأخوات كُلُّ عمادهن علىَّ ؟
ماذا أعمل وأنا أحلم طول عمرى بأن أكون أستاذًا أعيش بالعلم
وللعلم .. ماذا أعمل وهناك وراء البحر وطن أعتقد أنه بحاجة إلى ..

وقطعتُ ستيفى حبل أفكارى . كان الطعام الذى أعدته جميلًا جدًا .
أكلنا فى المطبخ الفسيح المنير . أكلنا وضحكنا ورسومنا صورًا جميلة
زاهية لمستقبل ما زال وراء السحاب .

بعد العشاء قلت :

- الآن أعود إلى بيتى .

- وتركنى وحدى .

- إلى حين .. إن إليس تنتظرنى .

- ومن إليس ؟

- إليس البرتى راندى ربة البيت الذى أسكن فيه ، إنها ربة بيتى ووليّة
أمرى ..

- وهل هى جميلة ؟

- إنها فى الخمسينيات .. وجميلة أيضًا ..

- وما هذا السلطان الذى لها عليك .

- لا تخافى .. لا شىء هناك .. سأعرفك بها يومًا . وستحببها ..

- وهل من الضرورى أن تذهب ..؟

- أعتقد ذلك ..

- وفى الصباح تكون هنا ..؟

- نعم .. أرجو أن تغلقى بابك بالمفتاح .. لا تردى على تليفون

ولا تستجيبى لأحد .. الليلة تنامين حتى الصباح .. سأكون أنا

الذى أوقظك فى الضحى ..

- نفطر معًا ؟

- نفطر ونتغدى ونتعشى ..

الأيام التى أعقبت تلك الليلة كانت من أجمل ما مر بى خلال العمر

الطويل . كان كلانا يشعر بأنه يبحث عن نفسه ووجدها . أنا وجدت

نفسى فيها ، وهى وجدت نفسها فى وكنى قد حكيت القصة كلها للمدام

إليس البرتى راندان . حكيتُها لها عقب وصولى إلى البيت . كنت قد وصلت متأخرًا فوجدتها فى انتظارى لتحاسبنى على التأخير ، كنتُ أكره ذلك منها لأننى رغم إيمانى بضرورة الزواج كنت أنفر منه كراهة لاستبداد الزوجة ، لم يكن ينقصها إلا أن تمسك المقشة وتقف لى وراء الباب .

قالت عندما رأته وجهى :

- الآن تعود !

- نعم ..

- وماذا أخرك ..؟

- سأقص عليك كل شيء . دعينى ألتقط أنفاسى . إن صمود ستة أدوار ليس بالعمل الهين ..

- وهل من الهين أن أظل أنتظرك حتى الثانية بعد منتصف الليل ..

- وما منعك أن تنامى !

وفى غضب بالغ أسمعها تقول :

- الآن تقول لى ذلك بعد أن لممتك من الطريق وهذبتك وجعلتك إنساناً ..

ولم تكن تلك هي المرة الأولى التى أسمع فيها هذه الأنشودة . إنها لم تَنسَ أبداً أنها علّمتنى وهذبتنى ونفضت عنى التراب ، ولا أنا نسيْتُ ذلك ، ولكن تكرار المنّ ثقيل . ولو رجل غبرى لردّ العنف بالعنف ، ولكنى كنت أحبها وكان شكرى بالعرفان لها عميقاً جداً ، ثم إنها كانت فى الخمسينات ، والمرأة فى الخمسينات تحتاج إلى تدليل وصبر طويل ، خاصة إذا كانت مثل إليس لا تريد أن تسلم قطّ أن السنوات تمر عليها كما تمر على غيرها .. فكانت عادتى إذا رأيتُ منها الغضب أن أصمت ، أدعها تشتت وتصبح وأنا صامت ، وبين الحين والحين أرجوها أن تغفو عنى وأن تنسى حماقتى وقِلّة عرفانى للجميل . وبعد الثورة ترضى عنى ، وعلامة الرضا هي أن تسأل :

- هل تعشيتَ ..؟

- نعم

ويعود إليها غضبها :

- مع مَنْ ؟

- اجلسى يا إليس .. اجلسى ستسمعين حديثاً عجباً ..

وتسرع إلى المطبخ وتُعد إبريقاً من الشاي ، وتعود وتجلس لتسمع الحديث العجب .. وكنت أحسب أنها ستحطم الإبريق على رأسى ،

ولكنى أرى أنها تأثرت لقصة هذه المسكينة ستيفى . وعذرتنى لقضاء الوقت معها ووقوفى إلى جانبها ، ثم تتغير ملامحها وتسال :

- وغنيّة هي ؟

- جداً ..

- وكريمة هي ؟

- جداً جداً ..

- إذن نستطيع أن نُسلّيها ونخفّف عنها ..

- أراك أدخلت نفسك في الموضوع ..

- عساك ظننت أنني أدعك معها وحدك ..

- لا يا إليس .. لا شيء يحلو لى هنا بدونك .. سأقلّمها لك
وستحيينها .. غداً ستأتى لزيارتنا بسيارتها ..

- وعندها سيارة ..؟

- نعم عندها سيارة ..

وبرقت عيناها ، وصَبَّتْ لى الشاي .

ومن الغد أتت ستيفى . منذ اللحظة الأولى تألفت المراتان ، كانت إحداهما فى حاجة إلى الأخرى ، كانت إليس فى حاجة إلى بنت تُفرّغ عليها حنانها ، وكانت ستيفى فى حاجة إلى أم تريح رأسها على صدرها .

ولكن أكثر ما سَرَّ إليس أن ستيفى كانت غنية وكريمة ، فلم تدع فرصة لاستغلال هذا الكرم إلا انتهزتها . لا يتصور أحد العقلية المالية للبورجوازية الفرنسية ، وإليس كانت بورجوازية من رأسها إلى قدميها ، وكانت باريسية تحب الملابس وتحب العطور وتحب الطعام .

كانت تختار لنا كل يوم مطعمًا نتعشى فيه ، وكانت تتحرى أن يكون من أكبر مطاعم باريس وأغلاها ، وكانت تذهب معها إلى دور الأزياء في فوبور سانت أو فوريه وتعود بملابس تكلف ستيفى المبالغ الطائلة ، وكانت تشتري على حسابها عطورًا من كل صنف .

وأقول لها :

- خَفِّفى عنها يا إليس .. إنها بنت طيبة وهى تحبنا ..

- تحبك أنت ..

- إذن خَفِّفى عنها لحاظرى ..

- يا مسكين .. أنت لا تدري ماذا يحدث غدًا .. دعنا نستمتع باليوم قبل أن يأتى الغد ..

وتذهب إلى غرفتها وترتدى شيئًا مما اشترته من مال ستيفى وتعود

تقول :

- أليس جميلًا ؟

- طبعًا جميل .

- أتدري أجمل ما فيه ؟ أننى لم أدفع فيه شيئًا .. طول عمرى أحلم بأن
اللبس شيئًا من عند ماجى روف .. هذا الفستان من ماجى روف ..
وبعد لحظة صمت :

- ولكن .. ألا ترى أن ستيفى حزينة ؟

- أجل فى أعماقها حزن لا أدرى ما سببه .. إنها خائفة ..

- خائفة من شاب يُسمى جان كلود ..

- ومن جان كلود ..

- شاب كانت تحبه ، أو أظن أنها لا زالت تحبه .. يبدو أنه شرير جدًا
وصعلوك نصاب ..

- وكيف تحب شريرًا صعلوكًا نصابًا ..

- لأننا نحن النساء مجنونات .. نحن نحب الشرير الصعلوك
النصاب .. نحبه إذا كان جميلًا .. إذا كان هو يملأ القلب والعين .

فى اليوم التالى كنت مع ستيفى فى شقتها . فتحت لى دولاب عمها
وقالت : انظر .. هذه كلها ملابس لم يلبسها من سنين ولن يلبسها
قط .. لماذا لا تأخذها ؟

- لأننى لا أحتاج إليها ..
- ستأخذها .. أو ستأخذ أحسنها ..
- دعينا من ذلك وقولى لى : مَنْ جان كلود ؟
- وقرأتُ فى عينيها رعبًا ، وظلت تنظر إلىَّ ثم رأيتُ دمعاتٍ تنحدر على خَدَّها وقالت :
- ولماذا تسأل عن جان كلود ..؟
- لأننى أحبك يا ستيفى .. أحبك ولا أحب أن يخيفك أحد ..
- إننى لا أخاف جان كلود .. لقد انتهت من حياتى .. انتهى ولن يعود ..
- هل أنت واثقة ..؟
- نعم .. ما دُمتُ قد وجدتك فلم يعد هناك إلا أنت ..
- إذن فقُصِّ على كل شيء .. أريد أن أعرف قصة جان كلود .
- ولم ترد . ذهبت إلى الفيراندا ومضيتُ خلفها . وجلستُ على كرسي وثير وجلستُ إلى جوارها ..
- وقصَّتُ على حكايتها مع جان كلود .

إنه شاب فرنسى جميل طويل عريض ولكنه صعلوك أو لص .
ولكنها أحبته ، سرقها ونهبها وخانها مرة بعد أخرى ، ولكنها ظَلَّتْ
تحبه ، إنه أسوأ ما فى حياتها وأحسن ما فى حياتها ، إنه حبها وشقاؤها .
ثم التفتت نحوى ، وقالت :

- ولكنه انتهى الآن .. لن يجدهنى مرة أخرى .. أنت ستحمينى منه ..
- سأحملك منه إذا كنتِ أنتِ تريدین ذلك .. أما إذا كنتِ ما زلتِ
تحبينه ، فماذا أستطيع أن أفعل ؟
- قلت لكِ إننى أكرهه وأحتقره ولا أريد أن أراه .. وأنتِ ستحمينى
منه .. أليس كذلك ؟ ..
- نعم .. ويسعدنى ذلك .

وأسندتُ رأسها إلى صدرى ودموعها تجري ، ونامت . وحملتُها
ووضعتها فى فراشها وغطيتها وأغلقتُ عليها الباب .

بعد أيام كنا فى مطعم ومقرص فى ضاحية من ضواحي باريس
تسمى «روبانسون» .

كانت ستيفى سعيدة جدًا وطروبًا جدًا .

وكانت إليس تأكل بنهمها المعهود .

وكانت الساعة الحادية عشرة ليلاً ..

ومن بعيد أقبل شاب طويل عريض وسيم ، نظرتُ إلى عينيّ ستيفي
فقرأتُ فيها رعباً .

كان هو جان كلود ..

واقترب واقترحم علينا مجلسنا دون استئذان ، ومضى يقول :

- ماذا جرى يا ستيفي .. أغيب عنك أياماً وأعود فأجدك قد نسيتني ؟

- لا أريد أن أعرفك .. وأرجوك أن تبعد عن هذه المائدة .. إنني الآن
مع خطيبي ..

ونظر إلى ذلك الوقح وضحك ، ثم قال في سخرية :

- خطيبك ؟ منذ متى .. ؟ وأين أنا ؟

وقالت إليس :

- اذهب عنا من فضلك .. حقاً إنك سمجّ جرىء .. فنظر إليها في
احتقار بالغ ، وقال :

- ومن هذه هي الأخرى ؟ أم خطيبك ..

ولا أدري ما الذى حدث . لا أدري من بدأ المعركة . الذى أذكره
أننى اشتبكتُ معه بالأيدى ، وتضاربنا وحال بيننا الناس ، وصاحتُ
ستيفى مُروعةً :

- الآن تمضى عنا أيها الوقح .

قال الشاب :

- أجل سأمضى .. ولكن لا بد أن أصفى حسابى معك ..

- لقد صَفَيْتُهُ ..

- لا .. ليس هنا .. لا بُدَّ لى من جلسة معك بعيدًا عن هذا الرجل
وتلك المرأة ..

وقالت إليس :

- لا تذهبى معه يا ستيفى ..

وقلت :

- أرجوكِ يا ستيفى .. تعالى معنا .. ستنام الليلة عند إليس .

صمتتُ البنت ، ثم قالت :

- وما ذنبكما ..؟

- إنه ليس ذنباً .. إنه واجب .. أنتِ الآن فتاتي ، ولا شأن لهذا الفجرى

بك .. فأمسكت بذراعى وقالت :

- لا تخف على .. دعونى معه الآن .. سأصقّى حسابى معه ، ولن يعود

إلى حياتى أبداً ..

وقالت إليس :

- ستيفى .. أرجوك .. لا تذهبى معه ..

- بل سأذهب لكى أضع حداً لعربدته .

قلت :

- فكّرى يا ستيفى .. أنا لا آمن عليك ..

- لا تخف .. إن هذا الإنسان مشكلتى أنا .. وأنا وحدى أحلّها .

وأشارت إليه ومضت ومضى خلفها وهو يضحك .

وأخرجت إليس منديلاً ومضت تمسح الدم من جوانب وجهى

وشفتى ، لم أحس بها ، كنت أنظر إلى ستيفى وهى تسير كالأسيرة

وخلفها ذلك الصعلوك .

وقالت إليس :

- ضاعث ستيفى .. ضاعث منك ومنى .. أنا أعرف ذلك .. قلت لك

إنها تحبه .. إنه شقاؤها وهو سعادتها ..

- هل يُعقل أن تعود إليه .. ؟

- لقد عادت إليه ..

- ولكن ..

- ليس هنا ولكن .. هنا امرأة تعشق رجلاً .. امرأة مسكينة مصيبتها قلبها .. مصيبتها حبها .

- وأنا ..

- أنت ؟ أنت تدفع الآن الحساب وتعود معي وتحاول أن تنسى ستيفى .. هذه محكومٌ عليها بذلك الرجل .. أنا باريسية وأعرف ذلك .

وبالفعل كانت إليس صادقة فيما قررت ، كانت تلك نهاية ستيفى بالنسبة لى . انتظرتُ أيامًا أن أتلقي منها مكالمة دون جدوى . كان المي شديدًا لما حدث . لا أدري إن كان سبب الألم أننى أحببتها أو أن سببه الخوف عليها وعلى مصيرها ، فهى فيما علمت إنسانة طيبة جدًا كريمة النفس حسنة النية . ولكنها لا تستطيع الوقوف وحدها فى تيار الحياة كأنها شجرة متسلقة لا بد أن تتركز على شيء ، وهذا الشاب الذى استولى عليها ، جان كلود ، كان آخر جدار تستطيع أن تستند إليه .

أغرقتُ نفسى فى العمل ، تلك كانت وسيلتى فى الهروب من متاعب الحياة . كنت أذهب إلى مكتبة الجامعة فى الصباح ولا أخرج

منها إلا مع المساء . كنتُ أعمل هناك عملاً إضافيًا ، وخلال تلك الأيام شعرت حقاً أن الشيء الوحيد الذى يصلح الرجل وينفعه هو العمل . العمل الجاد . بعد أسبوعين رفعوا راتبى ، وشيئاً فشيئاً بعدتُ عنى ستيفى وذكريات أبيامها .

فى ذات يوم ، عُدْتُ فوجدتُ إليس تنتظرنى فرحةً طرُوبًا ، ولم تنتظر حتى أجلس لأستريح من السُّلم العالى . بل بدأت تقول :

- كنت عند ستيفى !

- زُرْناها فى بيتها ؟ ورأيتها ؟

- ذهبت إلى البيت أتحسس الأخبار ، أنت تعرف أنها صديقتنا ولا ينبغى أن ننساها ..

- وماذا قالت لك ؟

- لم أرها ! ذهبت إلى البوابة مدام فولار وتحدثت معها طويلاً ، إنها سيدة فاضلة وأعتقد أنها تحبك وتقدرك . إنها تريد منك أن تذهب إليها فلديها كلام كثير لك ..

- وستيفى ؟

- تقول مدام فولار : إنها سعيدة مع فتاها هذا جان كلود : كل يوم سهر ولعب وضحك ، ومن يومين ذهباً معاً إلى الريفيرا .

فنظرتُ إلى السقف طويلاً ، ثم قلت :

- إذن فقد ضاعت حقاً ..

- ولكنها خلّفت لنا شيئاً ..

- وما هو ؟

- حقبة ضخمة أعتقد أنها ملأى بالملابس ومعها خطاب لك .. ها هو ذا ..

- وقرأت الخطاب .. إنها تحيى وتقول إنها تعتذر عما حدث وتؤكد أنها ستخلص من جان كلود هذا وتعود إلينا .

قرأتُ تاريخ الخطاب فإذا به قد انقضى عليه ثلاثة أسابيع . . .
المسكينة كانت تتصور أنها تستطيع الفكاك من أسر ذلك الرجل .
ولكنها ضعفتُ عن ذلك : وها هي ذى تلعب وتمرح معه ..

عُذْتُ أنظر في الخطاب فوجدتُ فيه حاشية تقول إنها كانت قد
أعدت معظم ملابس عمها التي لم يستعملها ولن يستعملها قط .
ووضعتها في حقبة لتعطينى إياها . كان ذلك قبل أن تُلْقَى هذا
الثعلب ، وأنها تركتُ الحقبة عند مدام فولار .

وقالت إليس :

- لقد أتيت بالحقبة وهي الآن في حجرتك وهذا مفتاحها .

- يا لك من امرأة قديرة يا إليس ..!

كانت حقيبة ضخمة من ذلك الطراز الذي كان الناس يسافرون به في البواخر ، كانت حقيبة سوداء من الجلد تملأ نصف الحجرة ، وناولت المفتاح لإليس ففتحتها ونظرت فبدأ على وجهها فرح عظيم وقالت :

- حقاً إن ستيفي إنسانة عظيمة .. لم تنسني ! بعثت لي أنا أيضاً بملابس كثيرة ومضت تُخرج ثوباً بعد ثوب حتى تحيَّلتُ أن ستيفي تركت لها دكاناً كاملاً من الملابس . لم تكن ملابس ستيفي بل ملابس خالة لها ، مقاسها ينفع إليس .. وكانت هناك بلوزات وجويات وجاكتة من الفرو .. كانت إليس ترقص طرباً كلما نظرت في قطعة من هذه الثياب وتقول :

- جديدة .. كلها جديدة ! هذه ملابس لم تُلبس قط ! خسارة يا ستيفي يا ألف خسارة ..

أما ملابس الرجال فكانت شيئاً لا يوصف : خمس بذلات وواحدة سموكتنج وأخرى فراك وقمصان وأربطة رقبة وصداريات واحد منها من جلد الشاموا ، ومحافظ أوراق من الجلد .

وقالت إليس :

- جرّب واحدة ..

وجرّبتها كانت مقاسى ، غريب أن أكون أنا وعمها من مقاس واحد ، ولكن نفسى كرهتها جميعاً . فتركت إليس تضعها بعناية في الدولاب ، ثم أخذت أشياءها ومضت إلى غرفتها لتجرّب ثيابها قطعة قطعة ، وأغلقت الباب والدمع في عيني ..
خسارة يا ستيفى - يا للخسارة ..



وانقضت بعد ذلك شهور تغيّر خلالها كل شيء في حياتنا .. أصبحنا - إليس وأنا من سراة الناس - شكلاً على الأقل - فملا بسنا في غاية من الأناقة ، وفي كل ليلة نتمشى في مطعم جديد بفضل العلاوة التى منحونى إياها في العمل .
وانقضت ستة شهور أو سبعة ..

وكنت مرة في مقهى من مقاهى بوليفار سان ميشيل ، وكانت الساعة الخامسة بعد العصر بقليل .. كنت قد فرغت من عملى مبكراً وجلست في المقهى أتناول فنجاناً من القهوة ..

ومرّت أمامى سيدة صغيرة تضع على عينيها نظارة سوداء كبيرة تحيل إلى أول الأمر أنها عجوز . ولكن استلفت نظرى أنها عندما رأتنى



أجفلت ، وكانت على رأسها قبعة كبيرة حالت بينى وبين النظر إلى ملامحها ، ولكن شيئاً فى داخل نفسى هتف بى :

- إنها هى .. هذه هى ستيفى ..

ونظرتُ فإذا بها تنحرف يميناً فى شارع جانبى . حُيِّلَ لىَّ أنها تحبى . وتركتُ ثمن القهوة فى طبق الفنجان وقمتُ أجرى مسرعاً خلفها ولحقتُ بها فى شارع سان جاك الموازى لشارع سان ميشيل ، كانت تعدو عَدْوًا .

وعندما أحسَّت أن إنساناً يتبعها وقفتُ وأسندتُ ظهرها للحائط حتى لحقتُ بها فقالت : ماذا تريد .. ؟

وخَفْتُ أن أكون قد غلطت فوقفتُ أتأمل وجهها جزءاً من ثانية ، هنا فقط تبيَّنتُ أنها هى ستيفى ..

كانت مُصَفَّرَةٌ اللون نحيلة الوجه . ولم أرَ عينيها خلف النظارة فقلت :

- معذرة .. ولكن .. هل أنت ..

فخلعت نظارتها وقالت غاضبة :

- نعم .. أنا هى .. أنا ستيفى ماذا تريد منى .. ألم يتوَّ كل شىء بيننا .. ؟

- لا يا ستيفى .. لم ينته .. هل تتصورين أننى نسيتك .. ؟
- إننى أريد أن تنساني أرجوك ، لا تنظر إلى وجهى . لا أحب أن ترانى
على هذه الصورة .. إن كنتَ تحببى حقاً فاتركنى وشأنى .
- لا يا ستيفى .. لا أستطيع أن أترككِ .. إننى لم أكُفَّ عن التفكير فيكِ
يوماً ..

- بعد الذى فعلتُ معكِ .. ؟

- هذا لا يهم يا ستيفى .. الذى يهم هو أنتِ ..
وأجهشتُ فى البكاء ، وألقتُ بنفسها على ومال رأسها على كتفى
وأخذت تتشنج !

- ووقعت القبة الكبيرة على الأرض ، وناولتنا إياها سيدة عجوز
وهى تقول :

- قبعتكِ يا صغيرتى .. مسكينة ..

وسارت المعجوز خطوات ثم التفتت ، وقالت :

- كل الرجال كلاب .. اصفعيه على وجهه بدلاً من أن تبكى على
كتفه ..! خنازير .. ! كلهم خنازير .. !

ويزرْتُ معها صامتين ، بعد قليل نادى تاكسيًا ، فقلت :

- تحبين أن نجلس فى مقهى .. ؟

- وأنا على هذه الصورة !

ثم أعطت السائق عنوان بيتها ..

شقتها البديعة التي كانت تتألق جمالاً بدت لي كأنها بيت مهجور ..
النباتات الخضراء التي كانت تزينها جَفَّ الكثير منها . فأسرعت أزويه
بالماء وجلست على الأريكة الجميلة وخلعت قبعتها . أين ذهبت لمعة
الشعر ؟ أين ذهب بريق العيون الزُّرق ؟ أين ذهبت نضارة البشرة ؟
حتى يداها كانتا نحيلتين ..

نظرت إلى طويلاً .. ثم قالت :

الآن اظن أنك شبعت مني : أنت ترى أنني أصبحت خطأماً .

- هذا الكلب !

- لا يا نيو .. إنه ليس مسئولاً .. أنا المسئولة .. حقاً إنه كلب حقير .
ولكني كنتُ أعرف أنه كلب حقير ، وتركْتُك ومضيتُ معه وأنا
أعرف أنه كلب ولص .. ولكني أنا أسوأ منه ، أنا امرأة ضعيفة
لا أساوي شيئاً ولا أصلح لشيء .. تركتُ نفسي بين يديه كأنني
لعبة .. وليست هذه هي المرة الأولى ! تلك هي الثالثة .. لا أدري
ماذا أصابني ..

- نسأل الله ألا يعود الرابعة ..
- لن يعود .. لأنه هذه المرة أخذ كل ما عندي .. حتى سيارتي تنازلت له عنها حتى يبتعد عني .
- ثم دخلتُ غرفتها وعادت بصندوق الجواهر والنقود ووضعتهم أمامي وفتحته . كان فارغًا تمامًا .. فنظرتُ إليها ذاهلاً ، وقلت :
- ستيفي .. ماذا جرى لك .. هنا كانت أشياء تُقدَّر بنحو مليون من الجنيهات الإنجليزية .
- نظرتُ إلى الأرض ، وقالت :
- ضاع كل شيء .. أعطيتُهُ أنا بيدي أشياء وسرق هو الباقي .. وأجهشتُ باكياً ونظرتُ إلى الصندوق ولم أملك دمعي .. وبعد قليل قلت :
- خفّفتُ عنك ، ما ضاع ضاع . والمال يمكن تعويضه ..
- وأنا .. مَنْ يعوض ما ضاع مني .. انظر إلى وجهي وشعري ..
- ماذا جرى لك ؟ ماذا فعل بك ؟
- لا أدري تشاجرنا وتصلحنا مائة مرة .. تصور أننا ذهبنا معاً إلى فندق في برايتون في انجلترا واستأجرنا غرفة عظيمة على البحر .. وفي

اليوم التالى أجده مع الخادمة فى نفس الغرفة .. ومع ذلك غفرتُ له رغم ما عانيتُ .. ومن شهر فقط وعدنى بالزواج وأقسم أن يصلح من شأنه ويستقيم ، وحسبتُ أنه صادق ، وبالفعل كان لطيفاً معى بضعة أيام ثم طلب ألفى جنيته فأعطيته . وذهبنا إلى القنصلية الكندية وأعلنّا رغبتنا فى الزواج وقدمتُ أوراقى ووعد هو بأن يقدم أوراقه بعد يومين .. قال إنه بعث يطلبها من بلدة قرب مرسيليا .. وفرحتُ بذلك وتنازلت له عن سيارتى ..

- واختفى .. ظلمتُ فى برايتون أنتظر وحدى حتى صرتُ على الحالة التى ترى .. وعُدتُ فقابلتنى البوابة مدام فولار .. أنت تعرفها .. ومنها عرفتُ بعد فوات الآوان أنه متزوج وله ولدان ..

- لقد خدعتكِ مدام فولار أيضاً ..

- لا .. لا ذنب لها .. إنها ما كانت تعلم .. لقد خدعنا كلنا ..

وظللنا صامتين دقائق ، ثم قلتُ :

- وماذا ستعملين الآن ..؟

- لقد عرف عمى كل شيء ، فأرسل يستدعينى .. قال : إننى لن أستطيع الحياة هكذا .. عنده حق ..

- ستعودين إلى كندا ..؟



- نعم .. امرأة مثلى لا تؤمن على نفسها ..

- لا تكونى قاسية على نفسك ..

- إن أحدا لن يقبلنى الآن .. ولا أنت ..

- يا عزيزتى ستفى .

- لو أنك وافقتَ على أن نعود معًا كما كنا لرفضتُ أنا لأننى أحبك .

إننى لا أستحق شيئًا يا تيو .. إننى كارثة على نفسى وعلى
الآخرين ..

- دعيانا من هذا الكلام الآن .. لننسى ما حدث الليلة فقط . سنكلم
إليس بالتليفون سيسعدنا الخبر .

فصرخت :

- لا أريد أن ترانى إليس هكذا ..

- إنها تحبك وسيسعدنا أن تراكِ .

- إنها لن تحببني عندما ترانى هكذا .

- نتمشى معًا هنا ، سأطلب من مدام فولار أن تأتينا بطعام .. إننى

بحاجة إليك .. لا تتصور كم أنا مرتاحة لوجودك معى .. حقًا إن
الرجل الذى يُعتمد عليه نادر ..

ثم نهضت وأمسكت التليفون وكلمت مدام فولار وطلبت عشاء
من مطعم قريب ، ونظرت إلى وابتمت ، ثم قالت : والآن أدخل
لأصلح من شأني وأعود إليك .

* * *

وعادت . دهشت حين رأيته . لقد عادت إلى شبابها ، لونها الوردى
ورُزقة عينيها الصافية ولمعة شعرها كل ذلك عاد ، كانت تضحك من
جديد ونجوى فى مرح . تناولنا العشاء .. وبعد الأكل ظلت واجبة
لحظات ، ثم قالت :

- هل حقيقة أنك عُدتِ لى ..؟

- نعم

- إلى الأبد .

- نعم .. ونسيتِ ما بدر منى ..؟

- نسيتُ . وتناولتِ يدي وقبّلته ، وقالت : الآن أستطيع أن أنام !

وتركتها ومضيت .

عندما كنت فى حوش البيت وجدت البوابة مدام فولار تستدعيني
بإشارة من يدها دخلت مسكنها البسيط . كان زوجها مُكوّماً على

منضدة وأمامه زجاجة نبيذ . هذا الرجل يشرب ستة لترات نبيذ في اليوم . إنه حطام .

قالت : لا تتصور كم أنا سعيدة لأنك عُدْتَ إليها ..

- أنا لم أعُدْ . لقد رأيتها صدفة .. وقصصت عليها ما جرى فقالت :
المسكينة لقد عادت من رحلتها مع ذلك الرجل وهي كومة من
اليأس والخراب . لو رأيتها في الأيام الأولى لبكيت . لقد نهبتها
وأهانها وامتنهن كرامتها وضربها ، نادنتى مرة في منتصف الليل .
كانت تريد أن تتحرر ولكنها أرادت قبل ذلك أن تراك .. أنت تقول
إنك لقيتها صدفة . هذه البنت خَفِيتُ قدماءها ورائك . أنت بالنسبة
لها الأمل الوحيد الباقي في الحياة . ولكنها كانت خَجَلَى منك . من
يوم جاءت وهي تجرى ورائك . أنت لم ترها ولكنك لم تتصور كم
ساعة كانت تقضيها واقفة قرب بيتك وعينها على الباب كي تراك .
كانت تريد أن تتحدث معك . إنها في حاجة إلى سند معنوى . في
حاجة إلى أب وصديق . لا تتصور كم مرة قطعت «بوليفار سان
ميشيل» بحثاً عنك . كم مرة ذهبت إلى طابق المكتبات الخاصة في
السوربون حيث تعمل أنت ولكنها لم تجرؤ على خطابك .. أنت
لو تدري أنك اليوم أنقذتها .

وبعد لحظة صمت قالت :

- تزوّجها يا بنى .. إنها بنت طيبة جدًّا . لا عليك من أخطائها ، إنها طفلة ، وهى غنية جدًّا ، عندهم أراضٍ ومصانع لا أدرى أين فى كندا ، وعمها غضب عليها وجاء هنا وأنذرها . لقد أمرها بأن تعود إلى كندا وهى عائدة ، ثم تحدّث معى عنها فحكيتُ له عنك . إنه يريد أن يراك . لقد ذهب لبعض العمل فى انجلترا وسيعود ، هل تعدنى بأن تقول له بأنك مستعد لزواجها ..!

- مدام فولار .. دعينى أفكر .. إن ما حدث اليوم كثير جدًّا ، ورأسى يدور .

- أريد أولاً أن أنام .. إننى متعب جدًّا .

- حسنًا .. أنا أفهم ذلك ، ولكننى أدعوك وستيفى للغداء معى هنا غدًا .. لا ترفض أرجوك ..

ولم أكن أستطيع الرفض . أنا أيضًا كنت فى حاجة إلى ستيفى واجتمعنا معًا على مائدة مدام فولار . كان وجهها مشرقًا ضاحكًا . لقد زایلها همُّها . بعد الغداء تركتنا السيدة ودخلت المطبخ . ظللنا صامتين . بعد لحظات قلت : ستيفى . لقد نسيت ما حدث تمامًا ، ونستطيع أن نواصل حياتنا كما كنا اعتزمنا .

فأشرق وجهها وقالت :

- إن ما عملته لا يُغتفر ، أنا لا أصدق أنك تنسى ذلك ، ولكن ما دمت أنت تقول ذلك فإننى أصدق . لا تدرى كم أنا شاكرة لك ..

- هل أنت واثقة من أن جان كلود قد خرج من حياتك ؟..

- أنا واثقة ..

- إذن : فانا طوع إرادتك .. أنتِ إنسانة طيبة جداً وامرأة جميلة ، وأعتقد أننا نستطيع أن نبني حياة سعيدة .. كل ما عندي تحت تصرفك . إننا نملك أشياء كثيرة جداً وليس هناك إلا أنا وأختى وسبعطينا عمى كل شيء . كان لا يثق قى ، ولكن عندما حدثته عنك . وعندما حدثته مدام فولار قال : إنه يرضى عنى من جديد بشرط أن نعود ممّا إلى البرتا فى كندا ونعيش هناك .

- كما تريدین .. قلت لك : إننى اتخذت قرارى ولا رجوع .

بعد أيام وصل عمها من انجلترا . كان رجلاً محترماً جداً . دعانى مرة أخرى للاجتماع به فى فندق الريمتز ، تحدثنا فى كل شيء وأخيراً قال :

اسمع يا بنى . إننى رجل غنى جداً ولكنى مسكين . كان لى ابن مات فى حادث طائرة . مات مع أمه وأخى والد ستيفى . وامرأة أخى

ماتت وهى تلد ستيفى ، ولم يبق لى إلا ستيفى وأختها ماجدالينا .
ماجدالينا متزوجة من مهندس كفاء وهو الآن ذراعى اليمنى ، عيه
الوحيد أنه يريد أن يستولى على نصيب ستيفانيا لأنه يقول إنها لا تصلح
لشئ ..

بالفعل هى ضعيفة ولا يُعتمد عليها فى عمل ، ولكن قلبها من
ذهب ، إننى أحبها أكثر مما أحب ماجدالينا ، ثم جاءت كارثتها مع هذا
الصعلوك الفرنسى النصاب وكادت البنت تضيع . أنت تستطيع أن
تنقذها إذا كنت فعلاً مستعداً للزواج منها . والمجىء معنا إلى كندا . أنا
أعرف أنك تشتغل بالعلم وأنت تملك أن تصبح أستاذاً أو أديباً كما
تريد ، سأساعدك على أن تعمل فى جامعة ألبرتا ، ولكن العمل بالجامعة
لن يأخذ كل وقتك سيكون عندك وقت طويل لتتولى نصيب ستيفى
من العمل . إننا نتاجر فى الأخشاب ، وعندى مصنع نجارة ضخمة ،
ومصنع لعمل أبواب الخشب للورق .. شئ كثير جداً ستُلم به عندما
تعمل معنا ، إنك شاب ذكى وستستطيع أن تلم بذلك كله فى وقت
قصير . إننى أعرف أن عليك التزامات نحن نتحملها كلها ، بل إننى
أقترح عليك أن تنقل كل عائلتك إلى كندا وتعيشوا معنا هناك فى
كندا .. إن الحصول على الجنسية الكندية سهل ما دمت ستزوج كندية.

وتكلم كثيرًا جدًا ، ثم توقف وسألني :

- هل لك سؤال .. ؟

- عندي سؤال واحد .. لماذا تصنع معي ذلك كله مع أن ابنة أخيك نجد ألفَ شابٍ خيرًا مني في كندا .

صمتَ لحظة ثم قال : أنت لا تعرف مكانة ستيفي من نفسي .. إنها في مكانة ابنتي الصغرى ولكني أحبها أكثر من أى شيء في الوجود .. لقد ماتت أمها وهي تلدها ولهذا فإنها تُدكرني بمأساة امرأتى وأنت لا تتصور كيف كانت ناتاليا زوجتى تلك ..

إنها صاحبة الفضل الأعظم فيما نحن فيه ، ومن سوء الحظ أنها ماتت شابة .. وستيفي صورتها ولكنها طيبة جدًا وساذجة جدًا . وأنا أخاف عليها من ثعالب الشبان ، فلما عرفتُكَ وقع في ظنى وإحساسى أنك رجل أمين تستطيع أن تحفظ ابنة أخى ومالها.

قلت :

- لتكون مشيئة الله .. سأفعل كل ما تريدون والله يعيننى على أن أَقِّ بحقك وحقَّ ستيفي ..

وقضينا بعد ذلك أيامًا نتحدث وندير أمور المستقبل . الحقيقة أننى كنت كرجل في قارب وسط بحر لا يبدو له شاطئ ، كنت عاجزًا عن

السيطرة على أى شىء ، فتركت المجاديف والقارب وجلست صامتًا
وليصنع الله ما يريد .. كان دافعى الأكبر إلى ذلك هو حبى لهذه البنت
وعطفى عليها . ومهما حدث فما كنتُ لأسىء إليها أبدًا ..

واتفقنا على أن تسافر هى وعمُّها ، ويدبرا إلى الأمر هناك ، فإذا تمت
الإجراءات عادت هى وتزوجنا فى باريس ثم مضينا إلى كندا ..



وجاء يوم السفر ، لم تكن الطائرة ذائعة الاستعمال كما هو الحال
اليوم. كان لا بد من أن نأخذ القطار من محطة «سان لازار» . إلى
شبريورج ، ومن هناك نأخذ الباخرة .

وذهبت معها إلى محطة «سان لازار» كانت المحطة خالية ، وكان
الرصيف الذى سنسافر منه باردًا ساكنًا ، وكان أمامى فى الناحية
الأخرى من القضبان جدار كالح من الطوب الأحمر . كانت معنا
إليس . وتوادعنا فى حرارة ، ثم صعدت إلى القطار وأطلّت من النافذة .
وقبل أن يقلع القطار ناولتنى خطابًا مقللاً ، وقالت لى :
- اقرأه بعد رحيلى .



فى البيت وبعد عودتنا جلستُ فى الصالون لأفتح الخطاب وأقرأه .
كانت إلس لا تكاد تحتمل الصبر حتى تفرغ من الشاى ، وفتحنا
الخطاب وناولتها إياه لتقرأه وأنا أسمع .

بعد دىباجة طويلة عنى وعن تقديرها لى وحبها وما إلى ذلك ..
ولكنى يا أحبَّ الناس إلى . ما ذنبك أنت حتى أبذل حياتك كلها بهذه
القسوة . إننى أعرف أنك رجل علم وبحث وكتابة ، فكيف أرغمك
على أن تدخل صناعة الأخشاب ؟ .. ثم إننى أعرف أنك تحب بلدك .
وتريد أن تخدمها ، وأنا لا أريد أن أحرملك قطَّ من هذه السعادة .

ثم إننى غير واثقة من نفسى . لا بد أن أصارحك بالحقيقة ،
لا أقصد أننى ربما عُدْتُ إلى جان كلود أو أميل إلى رجل آخر .. هذا
مستحيل وأنت عندى نهاية الآمال .. ولكن حملى ثقیل . إننى لا أصلح
لشئ سىكون عليك أن تعمل عملاً مرهقاً لأننى أنا لا أحب العمل
ولا أعرفه ، ثم إن زوج أختى رجل عسیر جداً وسىكون الصراع بینك
وبینه عنیقاً لكى تحافظ على حقوقنا . لهذا كله وبعد تفكير طويل قررت
أن أدخل الدير ، لقد شبعنا من الدنيا وكرهتها .

أصارحك بأننى قضیتُ أياماً أفكر فى الانتحار ، ولكنى خِفتُ
عليك . وأخيراً استقر رأى على دخول الدير . كانت أخصَّ آمالى بعد

سقطنى مع جان كلود هو أن أستعيد احترام الرجل الوحيد فى الدنيا
الذى أحترمته وتعلمتُ منه احترام نفسى . والآن وقد تحققتُ من ذلك
وضمنتُ رضاك عنى واحترامك لىاى وحبك لى فإننى أحب أن أهرب
من هذه الدنيا إلى الدير .

لأعيش هناك فى هدوء دون هجوم ، دون قلق على يوم أو غد ..
فهناك فى الدير راحة اليأس من الدنيا والأمل فى الحياة الأخرى .. وإننى
سأتزوج الكنيسة وأعيش هناك لأكفّر عما فعلت ولكى أصلى من
أجلك .

إن كنتَ تحببى فلا تكتب لى حرفاً لمدة سنوات ، أنا التى سأكتب
لك . معذرة .

إذا احتجّت لشيء فبالى كله فى يدك . اطلب من ألف إلى مائة ألف .
إننى حرة التصرف فى أموالى لمدة خمس سنوات هى سنوات الاختبار فى
الدير بعدها يعاملوننا كراهبات ونزوج الكنيسة زواجاً لا انفصام له .
فإذا أردتَ منى شيئاً فأمامك خمس سنوات ، وسيسعدنى أن أعطيك
كل ما عندى لأننى عندما يُعمّدونى راهبة لا بد أن أتخلّى عن كل ما
أملك فى الدنيا ..

وسأفعل ذلك ولكن شيئاً واحداً من أشياء هذه الدنيا لن أستطيع
التخلي عنه :

أنت وذكراك ..

لا تكتب لى إلا إذا كنت تريد المال .. فما عدا ذلك لا تكتب لى أرجو
ألا تضعفنى .. أريد أن تقوينى وتشد عزمى .. والإمضاء : الذاكرة
المحبة إلى الأبد استفانيا مارجرىتا سيجالوف ثورفتون .

وقفزت إلى إليس ، كانت تبكى ، أنا أيضاً بكيتُ مع أننى عصي
الدمع ..

وفى هدوء شربنا الشاي ، ثم قلت :

نهاية سعيدة لا أدرى .. إنها سعيدة ولكنها غارقة فى الدموع .

وبعد لحظات قالت :

- والآن تطلب منها مائة ألف دولار .. أو أقول لك مائتى ألف منها
شئى لى .

فسكتُ طويلاً ، ثم وضعتُ الخطاب فى جيبى ، وقلت :

ولا دولار واحد يا إليس .. دعكِ من هذا النظر الدائم إلى المال .
هذا حلم جميل انتهى ، إن الأحلام تنتهى بكل ما فيها بمجرد أن يفتح
الإنسان عينيه ..



لقد فتحنا كلنا عيوننا .. هي ونحن .. انتهت الأحلام . كل شيء
الآن ذكريات ..

وساد صمتٌ .. وفي سكون الصمت دقَّت الساعة اثنتي عشرة دقة
في بُطءٍ وعمق .. كانت قطرات دموع لا دَقَّات ساعة .

* * *